*أهمية علم البديع، وأثر ألوانه وفنونه في قوة الكلام وبلاغته*

*بحث فى دراسات بلاغيه*

إعداد أ/ *محمد سعد حسن*

*قسم اللغة العربية*

*كلية اللغات – جامعة المدينة العالمية*

*شاه علم – ماليزيا*

*mohamad.saad@mediu.ws*

**خلاصة ـــ هذا البحث يبحث في أهمية علم البديع، وأثر ألوانه وفنونه في قوة الكلام وبلاغته**

**الكلمات المفتاحية : المعاني ،البيان ، تمام البناء**

1. **المقدمة**

**الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، سوف نتحدث في هذا المقال عن أهمية علم البديع، وأثر ألوانه وفنونه في قوة الكلام وبلاغته**

1. **عنوان المقال**

**إن ما تردَّد من أن علم البديع يأتي بعد منزلة علمي المعاني والبيان -كذا بما يعني: كونه ذيلًا للبلاغة وتابعًا من توابعها، ومِن أنه يأتي بمنزلة الطلاء الذي يكون بعد تمام البناء، ومن ثَمَّ فتحسينه عرضي؛ لأنه يأتي بعد المطابقة، وبعد وضوح الدلالة؛ الذي هو موضوع علم المعاني -غير مسلم به، ويردُّه: أن هذا الكلام قائم على أساس نظري، لا دليل عليه ولا برهان، ذلك أن منزلة علم البديع ينبغي أن تتحدد بأمرين:**

**أولهما: أثر ألوانه وفنونه في قوة الكلام وبلاغته.**

**ثانيهما: مدخله في الإعجاز القرآني.**

**فإذا رأينا لهذه الألوان أثرًا في بلاغة الكلام؛ بحيث إذا فقد الكلام ما حواه من هذه الألوان؛ فقد بلاغته، كان هذا حكمًا على ما ذهب إليه المتأخرون بالبطلان، وثبت لألوان البديع منزلة ومكانة، لا تقِل عن منزلة علمي المعاني والبيان ومكانتهما، وبخاصة قد ثبت أن لهذه الألوان مدخلها في إعجاز القرآن الكريم.**

**وإذا أردنا بحث الأمر الأول؛ فلنأخذ بعض الأمثلة البديعية؛ لنتبين هل لهذه الألوان أثر في بلاغة الأسلوب وقوته، أو ليس لها مدخل فيهما.**

**وعلى سبيل المثال: المبالغة التي سموها: التبليغ، في قول ابن الرومي:**

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| **لو أن بيتك يا بن يوسف ممتلٍ** | **\*** | **إبرًا يضيق بها فناء المنزل** |
| **وأتاك يوسف يستعيرك إبرة** | **\*** | **ليخيط قدَّ قميصه لم تفعل** |

**وانظر إلى غرض الشاعر، من وصف مهجوه بصفة البخل، ترى أن الشاعر لم يقصد إلى وصف هذا البخيل بمجرد صفة؛ لأنها فيه مشهورة معروفة، ولكنه قصد إلى وصفه بمنتهى البخل، والبلوغ في هذا الوصف أحط درجاته، فالمختار من المعاني ما يؤدي هذا الغرض ويطابقه، فليس أهون من الإبر في البذل والعطاء، خصوصًا إذا كانت كثيرة يضيق بها فناء المنزل، وليس أمعنُ في البخل والشح وأبلغ في الخِسة واللؤم من الضن بإبرة واحدة، من هذا الكم الهائل من الإبر على مَن يستوجب حاله الإيثار والبذل؛ لرتق الخرق وضم المزق، ولا سيما إذا كان الطالب لهذا الشيء الحقير هو أباه، ولئن كان الشاعر مبالغًا في هذا الوصف، فإن المقام -أعني: مقام الهجاء اللاذع- مما يستدعي توجيه أشنع صفات الذم للمذموم والمبالغة فيها، ولو نقص الشاعر عن هذه الدرجة التي وصم بها مهجوَّه من البخل؛ لما وصل إلى غرضه، فالمبالغة فيها داخلة في غرض الشاعر، مرتبطة بالحال التي أراد لكلامه أن يجيء مطابقًا لها، حتى يوصف بصفة البلاغة.**

**وقس على هذا المثال جميع أمثلة المبالغة، وستجدها مرتبطة بالحال والمقام والأغراض التي قيلت فيها.**

**وخذ أسلوب الاستخدام في قول الشاعر:**

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| **إذا نزل السماء بأرض قوم** | **\*** | **رعيناه وإن كانوا غضابا** |

**فقد قالوا: أراد بـ"السماء"، الغيث، وبضميره في: "رعيناه"، النبت، وواضح أن إطلاق السماء وإرادة الغيث، مجاز مرسل علاقته المجاورة، كما أن إطلاق الغيث، يعني: الضمير في رعيناه على النبات، مجاز مرسل أيضًا علاقته المسببية، وأيضًا إسناد الراعي إلى ضمير المتكلمين فيه إيجاز بالحث، أي: رعته إبلنا ومواشينا، وأيضًا قوله: "رعيناه"، أخصر وأوجز من قوله: رعينا النبات الناشئ عن المطر، ثم فوق هذا فالبيت كله كناية عن شرف هؤلاء القوم، ووصفهم بالرياسة وشمول السيادة والسلطان.**

**والسؤال: أليست كل هذه الألوان في البيت الذي كان لأسلوب الاستخدام مدخل فيها، مما اتفقوا على أنها من علمي المعاني والبيان؟**

**إذًا لو افتقد البيت هذا اللون لأخلَّ بكل هذه المعاني التي قَصد إليها الشاعر قصدًا؛ تأديةً لغرضه، ومطابقةً للحال التي ساق فيها هذا البيت.**

**وخذ حسن التعليل في قول أبي الطيب المتبني:**

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| **ما به قتل أعاديه ولكن** | **\*** | **يتقي إخلاف ما ترجو الذئاب** |

**فقد قالوا: إن الباعث على سفك دماء الأعداء هو إهلاكهم والتخلص منهم؛ حتى يصفو الجو، وتأمن النفس غائلتهم، ولكن الشاعر يرى أن هذا ليس علة كافية لقتل الممدوح أعداءه، وإنما باعثه على قتلهم هو تمكن الكرم من نفسه، حتى صار يتقي إخلاف ما تؤمله الذئاب على يديه من اتساع رزقها من قتله، ولو تأملت ما قالوه؛ لوجدت أن هذا الصنيع الذي لجأ إليه الشاعر، لم يكن لكلامه أن يقوى ولا أن يقع موقعه من البلاغة بدونه، فهذا الأسلوب -أعني: أسلوب حسن التعليل- داخل في بلاغة الكلام، وفي صميمها.**

**ويكفي ما علق به إمام البلاغيين -عبد القاهر الجرجاني- على هذا البيت تدليلًا على ما نقول، فقد قال: "اعلم أن هذا لا يكون حتى يكون لاستئناف هذه العلة المدعاة فائدة شريفة فيما يتصل بالممدوح، أو يكون لها تأثير في الذم كقصد المتنبي ههنا، في أن يبالغ في وصفه بالسخاء والجود، وأن طبيعة الكرم قد غلبت عليه، ومحبته أن يُصدِّق رجاء الراجين، وأن يجنبهم الخيبة في آمالهم، وقد بلغت به هذا الحد، فلما علم أنه إذا غدا للحرب، غدت الذئاب تتوقع أن يتسع عليها الرزق، ويخصب لها القوت من قتلى عداه؛ كره أن يخلفها وأن يخيب رجاءها ولا يسعفها، وفيه نوع آخر من المدح، وهو أنه يهزم العدى ويكسرهم كسرًا، لا يطمعون بعده في المعاودة، فيستغني بذلك عن قتلهم وإراقة دمائهم، وإنه ليس ممن يسرف في القتل؛ طاعة للغيظ والحنق، ولو تتبعنا هذا اللون وغيره من ألوان البديع الأخرى في كل الأساليب؛ لوجدنا تحته من الأسرار والنكات، ما يضع يديك على أثر هذه الألوان في قوة الأساليب وبلاغتها.**

**فإذا ما انتقلنا إلى الأمر الثاني، وهو مدخل البديع في الإعجاز القرآني؛ لوجدنا أن فنون البديع لا تقل شأنًا في إظهار روعة القرآن الكريم، وسر فصاحته وبلاغته عن مسائل علمي المعاني والبيان، وأن ألوان البديع يُستدل بها على إعجاز القرآن الكريم، كما يستدل على إعجازه بمسائل التقديم التأخير والحذف والتشبيه والاستعارة، وما إلى ذلك من مسائل العِلمين - المعاني والبيان- ولنأخذ في التدليل على ذلك بعض الأمثلة:**

**ففي مراعاة النظير، ما جاء في قول الله تعالى {ﮂ ﮃ ﮄ} [الرحمن: 5]، تجد أن هذه الآية جمعت بين الشمس القمر، وهما متناسبان لتقارنهما في الخيال، ولكونهما كوكبين سماويين يبدِّدان ظلام الكون، فإذا كان الغرض من هذا الجمع، هو الحكم عليهما بأنهما يجريان في بروجهما بحسبان معلوم المقدار، لا يزيدان عليه ولا ينقصان عنه، ففي ذلك نظام الكائنات واختلاف الفصول والأوقات، وحساب الشهور والسنين، فكان ذلك الصنيع أخصر الطرق في أداء هذا الغرض وإيصاله إلى النفوس، نعم، يمكن أن يقال في غير القرآن: الشمس بحسبان والقمر بحسبان، فيكون لغوًا من القول وباطلًا من التأليف؛ لأنه إطناب لا داعي له ولا غرض يستدعيه، فأساليب مراعاة النظير التي عمادها جمع أمر وما يناسبه لا بالتضاد، مما تقتضيها الأحوال وتستدعيها الأغراض.**

**وكذا لو تأملنا أسلوب الإرصاد، الذي يعني في اصطلاح البلاغيين أن يجعل قبل الفقرة أو البيت ما يدل على العجز إذا عرف الروي.**

**وتأمل قول الله تعالى: {ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ} [العنكبوت: 40]، فغرض الآية: نفي أن يكون من الله ظلم للعباد وإثبات ظلمهم لأنفسهم، وطبيعة الأسلوب الذي يؤدَّى به مثل هذا الغرض، أن يدل أوله على آخره، وسابقه على لاحقه؛ ولذا يقول السبكي: "لو وقف القارئ على: {ﭼ}؛ لفهم أن بعده يظلمون"، وروي أنه لما بلغت قراءة النبي : {ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ} [المؤمنون: 14]، قال عبد الله بن أبي سرح: {ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ} [المؤمنون: 14]، فقال النبي : ((كذلك أُنزلت))، وإذا كان الغرض متعلقًا بمثل هذا؛ كان ما أطلقوا عليه اسم الإرصاد عائدًا على الأسلوب في التحسين الذاتي؛ لأنه مما يقتضيه المقام.**

**والأمثلة القرآنية المشتملة على ألوان البديع، أكثر من أن يتسع لها هذا المقام، فهي كثيرة ومبثوثة في أساليب القرآن وآياته، وكلها تشهد بأن حسنها ذاتي داخل في صميم البلاغة، ودال على عظمة القرآن وإعجازه.**

**وقد أكد الدكتور محمد أبو موسى: على أن البلاغة القرآنية، يتساوى فيها ألوان البديع وفنون المعاني والبيان، فبلاغة القرآن المعجزة، تحيط بكل هذه الألوان والفنون، وذلك في قوله عن ألوان البديع، في تفسير الزمخشري للبلاغة القرآنية، وعرض الزمخشري للمشاكلة، والطباق، والجناس، والمزاوجة، والتقسيم، وغير ذلك مما جعله المتأخرون من علم البديع، كما عرض لفنون البيان والمعاني، ولا أجد من كلامه ما يدل على أن الألوان التي جعلها المتأخرون من علم البديع دون غيرها من فنون البيان والمعاني، من حيث أثرها في قوة الكلام وبلاغته، يقول: وقد نظرت في كتابه كله، ووقفت عند كل لون ذكره من هذه الألوان، فوجدته يشير إلى بلاغته، وإلى أنها فن من كلامه البديع وطراز عجيب، وأنها من مستغرب فنون البلاغ، ثم يشيد ببلاغة القرآن المعجزة التي تحيط بكل هذه الفنون، وتوجد فيها على أحسن صورة وأقوم منهج، يقول الزمخشري، في المشاكلة: "ولله در التنزيل، وإحاطته بفنون البلاغة وشعبها، لا تكاد تستغرب منه فنًّا إلَّا عثرت عليه فيه، على أقوم مناهجه وأسد مدارجه".**

**ويقول في نوع من أنواع اللف: "إنه لطيف المسلك، لا يكاد يهتدي إلى تبيينه إلا النَّقَّاب المحدث من علماء البيان، ويذكر إعجاب شريح القاضي، ببلاغة الشاهد الذي راعى المشاكلة، حين قال له شريح: إنك لسبط الشهادة، فقال الرجل: إنها لم تجعده عني، فقال له شريح: لله بلادك، وقَبِل شهادته، ثم هو يبسط هذه الألوان ويحللها، ويشرح أسلوبها وما تنطوي عليه من أسرار ونكات، وهذه طريقته في دراسة فنون البيان والمعاني".**

**وقد صرح العلامة صفي الدين الحلي: بأن محاسن البديع يعرف بها كما يعرف بغيرها من ألوان المعاني والبيان ومسائلهما، وجه إعجاز القرآن الكريم، وذلك في قوله: "لا سبيل إلى فهم القرآن الكريم ومعرفة حقائقه، إلا بمعرفة علم البلاغة وتوابعها من محاسن البديع، اللتين بهما يُعرف وجه إعجاز القرآن وصحة نبوة محمد  بالدليل والبرهان".**

**مما سبق يتضح بما لا يدع مجالًا للشك، أن علم البديع لا يقلُّ منزلة وشأنًا عن العلمين الآخرين؛ المعاني والبيان، فإن مدخله في بلاغة الكلام وقوته، وإعجاز القرآن الكريم، وسر عظمته جعل له من الفضل والمزية ما لهما.**

**خلاصة ما سبق:**

**أن منزلة البديع في مجال الدراسات الإسلامية، والتعرف على مرادات الله، وأسرار القرآن ودلائل إعجازه، لا تقل شأنًا عن منزلة أخويها المعاني والبيان، بل وعن غيرها من سائر العلوم العربية والإسلامية، وأن القول بغير ذلك، أو بجعله تابعًا لأخويه ذيلًا لهما، أو بجعل حسنه عرضًا لا ذاتًا، كلام ينقصه الدقة ولا يتفق مع النظرة العلمية للأمور، وقد ذكرنا من الأدلة على هذا ما به تقام الحجة.**

**المراجع والمصادر**

1. **القزويني ، زكريا بن محمد القزويني تحقيق: محمد السعدي فرهود ، (الإيضاح في علوم البلاغة) ، طبعة رقم1، سنة النشر: 2001 م**
2. **الجرجاني، عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، (دلائل الاعجاز) ، ط5، مكتبة الخانجي، 2004م.**
3. **أبو موسى، د. محمد محمد أبو موسى، (دلالات التراكيب دراسة بلاغية) ، القاهرة، مكتبة وهبة للطباعة والنشر والتوزيع، 1987م**
4. **المراغي، أحمد مصطفى المراغي، (تاريخ علوم البلاغة و التعريف برجالها) ، القاهرة، مكتبة و مطبعة مصطفى البابي، ط1، 1950م**
5. **فيود ، د. بسيوني عبد الفتاح فيود ، (علم البيان: دراسة تحليلية لمسائل البيان) ، القاهرة، مؤسسة المختار ، دار المعالم الثقافية، الإحساء ، ط 2، 1998 م**
6. **الخوارزمي ، الشيخ يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي الخوارزمي الملقب بسراج الدين السكاكي، (مفتاح العلوم) ، لبنان، مكتبة المقهى، نشر دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية ، 1987م**
7. **الشاطئ، عائشة بنت الشاطئ، (التفسير البياني) ، مكتبة المجلس، الطبعة الأولى، 1962م**
8. **فيود، د. بسيوني عبد الفتاح فيود، (علم البديع: دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع) ،القاهرة، مؤسسة المختار، 2004**
9. **الصعيدي، عبد المتعال الصعيدي، (البغية على الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة) ،مكتبة الآداب، 1999م**
10. **شاهين، كامل السيد شاهين، (اللباب في العروض و القافية) ،القاهرة، الهيئة العامة لشئون الأميرية، 1978م**
11. **القيرواني، ابن رشيق القيرواني، (العمدة في محاسن الشعر وآدابه) ،الناشر: دار الكتب العلمية، 2001م**
12. **أبو موسى، د. محمد محمد أبو موسى، (التصوير البياني) ،القاهرة، مكتبة وهبة للطباعة والنشر والتوزيع، 1997م**